

إيزيس

« ولد أوزوريس من الإله جب (الأرض) ومن الإلهة ناوت (السماء) حين أدرك هذين الإلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس وشرهم . ولما كبر تزوج من أخته إيزيس ، وجلس على عرش المصريين وصار ملكاً على الآلهة والناس جميعاً . وقد استطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردهم إلى السلم وأن يعلمهم صناعاته .

وكان « ست » إله الشر أخاً لأوزوريس . ولما رأى من آيات حكمته أدركته الغيرة ، فدعاه إلى وليمة أعد فيها صندوقاً فاخر الصنع ووعد أضيافه بأنه مهديه لأى منهم طابق الصندوق حجمه . فدخل إليه الضيوف واحداً بعد الآخر ، حتى إذا كان دور أوزوريس واستوى فيه - وكان قد صنع على حجمه - أسرع شركاء إله الشر وأقفلوا الصندوق وألقوا به في النيل ، فدفعه التيار إلى البحر ، وقذفت به الأمواج إلى شاطئ الشام ، وبقي عنده تحوطه شجرة أنماها القدر لتحميه من الأعين ، إلى أن جاءت به إيزيس إلى مصر بعد حزن وبحث . لكن « ست » عثر بأخيه ثانية في إحدى جولاته جوف الليل فمزق جسده أربعة عشر جزءاً ألقى بكل منها في مكان . فعادت إيزيس إلى بحثها واستعادت أجزاء الجسم ، واستعانت بأختها وبابنها الإله هورس وبطقوس الدين ؛ فردوا إليه حياة شابة خالدة لا يحيهاها على الأرض بل في السماء . وكذلك بعث « الإله الملك » ووعد بالبعث كل من يفعل الخير في حياته .

(أيس - ص ٢٨٦ و ٢٨٧ من كتاب في أوقات الفراغ) .

« لقد حدثتكم بحديث إيزيس فرايتم مبلغ وفائها لأخيها وزوجها أوزوريس . قتله أخوه إله الشر تيفون ، فاستقلت البحر باحثة عن جثته . فلما عثرت بها وعاد تيفون إلى تقريق أجزائها عادت تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ، ثم حبست نفسها لتعيد إلى إله الخير حياة الخلد . وعملها هذا آية في الوفاء من امرأة ، وهو خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة .

.... . وقمنا إلى نزهتنا فأقلنا زورق وسعنا جميعاً . ودار حديثنا حول عبادة إيزيس في مصر وروما واليونان » :

(سميراميس - ص ٣٠٦ من كتاب في أوقات الفراغ)

تخطينا أبواب سميراميس فإذا أضواؤها طرحت على الرصيف أمامها وعلى الطريق بعده ضياء مبهماً اختلط بضوء القمر السابح في السماء ولما تكتمل دائرته ، فهو ثلاثة أرباع ، تعرج طرفه المشطور فجعل له ذقناً وأنفاً وجبيناً وضاء . وكست الأشجار الرصيف المقابل للفندق ظلاماً . فلما بلغنا الشاطئ ألفينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه الندى فجعل منها مرآة له وحده ، ونزلنا على الدرج إلى مرسى الزوارق وقد اصطفت بعضها إلى جانب بعض ومنها الصغير يسير بالمجداف ولا قلع له ، ومنها ما طويت قلوعه في انتظار من يستقله ، ومنها ما أحاطت بجوانبه ستور هيات منه معبداً للزهرة وآلهة الهوى جميعاً . ووقفنا وتقدم الذي دعانا إلى الشاى يتخير لنا زورقاً لا ستور على جوانبه ؛ فليس حديث الرجال في حاجة إلى ستر وإن تناول الجمال وآلهته والهوى ورياته . وتنادى أصحاب الزوارق كل يكشف من فضائل زورقه عما يحسبه مرغباً إيانا فيه ، وجعل كل منا يدير نظره في هذه السوايح ليتخير الطفها وأظرفها . فأما الأشيب فوقف في شبه ذهول برهة لا ينظر إلى الزوارق ولا إلينا . وتخبرنا زورقنا وجاء

صاحبه يعاوننا على التخطى إليه . فلما كان دور الأشيب وأمسك رب
الفلك بيده سمعت الأشيب يهمس في أذنه :

— إلى أين ذهبت السيدات الإفرنج والسادة الذين سبقونا إلى هنا
منذ هنية ؟

فابتسمت وعجبت لفعل جمال فاتنة الفندق بالأشيب ، ونظرت إلى
« الرئيس » فإذا به يجيب في جد من يدرك قداسة الهوى مشيراً إلى ناحية
جسر عباس :

— هم سألوا عن ذهبية أحد البكوات هناك ، وأحسبهم يقصدونها .
أخذنا أماً كننا ، ونشر الرئيس قلع زورقه بعدما دفعه فوق لجة الماء
والنور بمجدافه . وسرى إلى نفوسنا نسيم عذب بليل زاده القمر رقة وعذوبة .
وجرى الزورق يدفع ذلك النسيم في قلعه وقد وجهه الرئيس إلى ناحية
جسر عباس ، كأنما هداه سؤال الأشيب طريقه . وسرحت بصرى نحو
الجزيرة ، فاستوقفته إحدى الذهبيات وكأنها بجمالها قدس هوى أنبته
الماء وانبت فيه أنوار الكهرباء المظلة من نوافذها الرشيقة الضيقة . وأدرت
نظري إلى سميراميس ، فإذا هي بأضوائها الكثيرة منارة هدى لفلك النهر
جميعاً . وأشركت أصحابي فيما جال بخاطري ، فكان الأشيب أسرعهم إلى
إجابتي :

— هي منارة هدى للقلوب والأبصار .
وابتسمنا . . أما هو فلم يتسم ؛ لأنه كان في شغل بالذهبية التي
ذهبت إليها الفاتنة وأصحابها .

ثم قال الذى دعانا إلى الشاى يداعبه :
— لعلك لا تشير إلى فندق سميراميس بل إلى سميراميس الإلهة التي
جعلت الفندق منارة هدى ومعبد هوى : ولعل الذى هدانا إلى الفندق

والإلهة فيه ، يهديننا إلى الإلهة حيث تكون .

وابتسم الأشيب لهذه الدعابة ، وابتهل إلى الله أن يجيب الدعاء .
ثم توجه إلى نجى أبيس بقوله :

- وأنت يا صاح خذ بنا في حديث إيزيس . فلعل الإلهة التي عثرت
على أخيها وزوجها أوزوريس تهدي هذا الزورق فيعثر على صاحبها
الإلهة السيدة سميراميس .

قال نجى أبيس :

- لا يكن قولك عبثاً بمعبودتنا القديمة التي امتد سلطان ربوبيتها من
مصر إلى أثينا وروما ، ولثؤمن بأن لاسمها سرّاً تعنو له القوى حتى اليوم .
وإذا كانت قد تغلبت إبان حياتها زوجة لأوزوريس على كل العقبات
بالجمال والعلم والطيبة ، فإنها ظلت بعد ما ارتفعت إلى أثر الخلد تؤتي
عبادها المخلصين من روح قوتها ما يتغلبون به على كل عقبة ، لكنها
تطلب إليهم أن يكونوا مثلها ذوى صبر وإيمان . فلا تحسب يا صديق
أنها عادت بأوزوريس في صندوق الخيانة الذي حبسه فيه أخوه إله الشر
من غير عناء . بل لقد ركبت في سبيل ذلك من الأهوال ما تضعف دونه
همم الرجال . ولولا ربوبيتها وحرصها على أن يدفع الخير الشر ، ويغلب
الرجاء اليأس ، لأسلمت للقدر وعنت لنكد الحظ . وقد كادت تضعف
أول ما عرفت الخبر ، وكاد الهم والحزن يقعدان بها دون النضال . وكفاها
يومئذ أن قصت خصلة من شعرها وأن لبست الحداد . لكنها عافت أن
تستسلم لتيفون ، وأن تدع الخير دفيناً في محبسه غير مخلد في السماوات .
وسارت فألفت على شاطئ النيل عند مدينة فقط أطفالاً سألتهم عن الصندوق
وهل رأوه ؟ والأطفال كما تعلمون ، أحباب الله . وهم لذلك ملهمون من

أمر الغيب ما لا يلهم الرجال . فلما عرفت منهم سير الصندوق تبعته حتى مصب النهر وإلى جيبيل في الشام . وكان أهل جيبيل قد بهروا بنمو الشجرة التي أحاطت به وحفظته في جذعها . فلما بلغ ملكهم (مالكاندر) أمرها أمر بها فقطعت وجعل منها عماداً لبهو قصره . وأحاطت الرياح المقدسة إيزيس بذلك كله خبراً ، فجلست عند مورد ماء مكتبة لا تكلم إنسياً . فلما مر بها خادومات الملكة عشتروت ، حيتن وتحدثت إليهن ومشطت شعورهن وعطرت أجسامهن بالعطر الذي يفوح من شذا شخصها المقدس . وعدن إلى سيدتهن ، فتاقت إلى معرفة الغريبة التي صوّعتهن بالشذا العذب ، وبعثت في طلبها ، فبهرا جمالها وحكمتها ، واتخذت منها صديقة لها ، وعهدت إليها في تربية ولدها وشفائه . وكذلك أتيح للإلهة الحزينة أن تقيم على قبر زوجها الدفين في عماد البهو تشدو حوله كلما سجا الليل بأغنيات الموت والأسى . فإذا فرغت من شدوها عادت إلى الطفل تحرق من جسمه كل أسباب المرض والفناء . وفطن بعض من في القصر لها وأبلغوا الملكة خبرها ، فراقبتها ليلة ، حتى إذا رأت النيران تخرج من فمها صوب الطفل صرخت جزعة مرتاعة . فسلبت الإلهة من الطفل ما كان قد أصاب من أسباب الخلد وإن أبقت له صحته . وخاقتها الملكة وحسبتها ساحرة ، فعرضت عليها أن تأخذ ما تشاء وأن تغادرهم . فاختارت إيزيس العماد ، وشقته وأخرجت منه الصندوق وما كادت تراه حتى علا نحيبها ، ثم حملته في قارب وبعدت عن جيبيل وفتحتة وقبلت أوزوريس وألصقت وجهها بوجهه وبكت أمرّاً بكاء . ولما بلغت مصر نحت الصندوق في مكان تبحث عن ابنها هورس وعن أختها نفتيس ليعيدا للملك الإله حياته .

« فلعلك ترى يا صديقي أن إيزيس تجشمت في سبيل العثور على جثة زوجها أوزوريس من المشقة ما لا تتجشم النسوة في سبيل البحث عن أشلاء

أزواجهن ، بل عن أزواجهن الأحياء . وإنما هو الوفاء الذى جعلها تستمرئ المشقة ، وحرصها على غلبة الخير للشر هو الذى هون على ربوبيتها أن تخضع « للملاكندر » وامراته .

ولما عثر « ست تيفون » أثناء صيده بالصندوق وبه جثة أخيه مزق الجثة أربعة عشر شلواً وألقى كلا منها فى مكان . وليس من اليسير تصور ما تجشمتة إيزيس فى سبيل العثور من جديد بالأشلاء جميعاً . واجتمعت لها أعضاء أوزوريس كلها خلا عضواً فرداً كان الشرقد ألقى به فى النهر طعاماً للأسماء ، مما اضطر إيزيس إلى أن تصنع مكانه صورة له من الشمع ليتم لها الرجاء فى إعادة الحياة الكاملة لإله الخير الذى عبث به الشر وأعوانه شرعبث . وكأنما كان الخير فى عصور الآلهة مثله فى عصور الناس هيئاً للشر ، متحاشياً إياه ، قاصراً عن دفع هجماته ، عاجزاً من مهاجمته . فإن إيزيس خشيت بعد الذى لاقت من نصب فى بحثها أن يعثر تيفون بالخير مرة أخرى ويعبث به ، فأقامت أربعة عشر قبراً فى أربع عشرة قرية من القرى التى عثرت بالأشلاء فيها ، وزعمت أن كل واحد منها قبر أوزوريس ، لتضل بذلك أخاه فى مطاردته إياه . وما تزال هذه القرى تدعى إلى يومنا بهذا الاسم . فأبو صير ليست إلا « بوزيرى » أو قبر أوزوريس . وإقامة هذه القبور جهد مضمّن أشدّ إضناء ، وهو بعض الوفاء الذى تميزت إلهة مصر القديمة على غيرها من إلهات الجمال اللاتى ازدرين الوقار وسخرن من العفة .

قال صديقنا الشاب :

— ظريفة أساطير القدماء ! وأقر لكم الآن بخطئى حين سخرت من عبادة أبيس . فما دام للجمال آلهة وللوفاء آلهة وللخير وللشر وللنور والظلام آلهة ، فمن حق ثمرات الأرض أن تكون لها آلهة . وللشور كما للنيل وللشمس

حظ في إنبات هذه الثمرات . فمن حق الثور أن يكون إلهاً كالشمس والنيل ، ومن حقه أن يكون أوزوريس أو غير أوزوريس من أكابر الآلهة رمزاً له . وقال الذى دعانا إلى الشأى باسمًا :

— ما أسعد جماعتنا بعودك إلى ذوق أساطير أسلافنا ! وما أشدنا سعادة بإجلالك عبادة أبيس ! فهو وحده الذى اختص مع النيل والشمس بعبادة مصر القديمة منذ أقدم عصور تاريخها . أما سائر الآلهة فكان لهم شأن غير شأنه وحديث غير حديثه . كان لكل منهم اختصاص لا يتخطاه . وأحسب أن توزيع الاختصاص بين الآلهة في مصر القديمة وفي اليونان وروما ، ونسبة الخير إلى أحدهم والعلم إلى غيره والشر إلى ثالث وهلم جرًا ، لم يكن إلا بعد تطورات سياسية واجتماعية مرَّ بها عبَاد هذه الآلهة . وأحسب أنهم أول نشأتهم كان كل منهم إلهاً طائفيًا له كل صفات الربوبية عند أهل طائفته ، كما كانت أوثان العرب قبل الإسلام آلهة كل منها لقبيلة ، ولكل في نفوس عباده كل ما كانت تتصوره هذه النفوس الساذجة الضالة من صفات الربوبية . ثم كان أن تغلبت طوائف على أخرى أو امتزجت طوائف بأخرى ، فكان إله الطائفة المغلوبة على أمرها شقيًا مثال النقص والفساد ، وكان إلهاها الطائفتين الممتزجتين صنوين في الفضل بلغ من تشابه صفاتهما أن امتزج كل بصاحبه . وأذكر على سبيل المثال أن آمون إله طيبة لم يكن أول أمره ذا مكانة عند غير عباده ، وكان رع هو الإله المقدم في أنحاء مصر الأخرى . فلما آل إلى طيبة عرش مصر وكان لزماً أن يصير لآمون مجد طيبة ، لم يكن إلا أن امتزج برع فصار الإله آمون رع . ولما أصبحت مصر مملكة واحدة توزعت جهود الألوهية بين آلهة عشائرها المختلفة ، وخص كل منهم بعمل من الأعمال ووصف به . وأعمال هذه الآلهة هي ما قضت حاجات عبادها النفسية أن تكون ، وهى لذلك

مظهر من مظاهر شهوات الإنسان ومخاوفه وآماله . على أن التاريخ المعروف
ضنين بأن يحدثنا متى تم هذا التوزيع . وكل ما نعرفه عن ثقة أن رع
كان كبير الآلهة منذ كان للآلهة كبير ، وأن هورس كان إله الشمس
في هليوبوليس . ولقد ظل له ولفتاح إله منفيس أكبر السلطان ، حتى
جعلت طيبة إلهها آمون قريباً لرع وإلهاً للشمس كهورس وفتاح . وكان
لكل من هؤلاء الآلهة ممثل له من حيوانات الأرض .

قال الشاب :

— وما حكمة اختيارهم الحيوان ممثلاً لآلهتهم ؟ ! أولم يكن خيراً أن
يرسل كل إله للناس رسولاً منهم من أن يرسل حيواناً أعجم ؟
وأجاب الذى دعانا إلى الشاى :

— ما أحسب المصريين القدماء كانوا قوماً فى بداءة الحضارة ، حتى
أصدق الرواية التى تفسر عبادتهم الآلهة الحيوانات بأن الناس كانوا
أول الخليفة أكثر من الآلهة عدداً وخبثاً حتى خشيتهم الآلهة ، فتمصوا
أجسام الحيوان لينالوا عطف الناس عليهم وليطفثوا من نارشرهم . بل
إنى لأميل لتصديق ما يروى من أن جنود مصر هزمت غير مرة فى وقائع
متعاقبة بسبب اختلاط أفراد فرق جيشها بالفرق الأخرى ، فاتخذت لكل
فرقة علماً جعلت عليه رسم حيوان كى يهتدى الجند به . فلما تم
لهم هذا النظام سار النصر فى ركا بهم مما أعز أعلامهم عليهم . وكما يقدر
أهل هذا الزمان رمز وطنهم ، وكما يفتدون بالروح علمه ، كذلك قدس
قدماء المصريين أعلامهم وما عليها من صور ، وقدسوا تبعاً الحيوانات
التي تمثلها هذه الصور . وبمر الزمن أصبح هذا التقديس عبادة لهذه
الحيوانات وتأليهاً لها على نحو ما يفعل عامة الناس فى كل بلد وكل دين
بإزاء أوليائه المقربين .

« ويضيف المؤرخ القديم ديودور الصقلي سبباً ثالثاً في تأليه قدماء المصريين للحيوان يدل على أنهم كانوا في ذروة حضارة كاملة ؛ ذلك أن هؤلاء المصريين إنما كانوا يقصدون في الحيوانات فائدتها للحياة الإنسانية . والإنسان لا يقدر إلا فائدته ولا يؤمن إلا بها . فالبقرة تحرث الأرض وتنسل ثيراناً وأبقاراً للحرث والنسل ، ومن صوف الغنم يلبس الناس ، ومن ألبانها يصنعون الزبد والجبن . والكلب حارس أمين ورفيق في الصيد بارع . ومن الطيور ما عبده المصريون لقتله الثعابين والحشرات الضارة بالناس وبالزرع . أما صاحب الجلالة القدسية أبيس فقد كانوا يعبدون فيه قوة إخصاب الأبقار لتنسل والأرض لتثمر . وفي ثمر الأرض متاع للإنسان وفائدة أى فائدة .

« لم تكن الحيوانات إذن رسلاً للآلهة بل كانت هي الآلهة نفسها » .
 أتم الذى دعانا إلى الشاى قوله ، وأراد نجى أبيس أن يتم حديث إيزيس ، لكن الشاب استمهله بابتسامة وبإشارة لطيفة من يده وقال :
 - ليس أشهى يا صديقى من حديثك عن آلهتنا الأقدمين ولا أعذب .
 ولست أقول لك ذلك مجاملة ولا تمليقاً . فقد رأيت حتى أول الأمر على عبادة أبيس ومقاطعتى لفصصك عنه استخفافاً بأمره . أما وقد ملكتُ شجون هذا الحديث الشجى على نفسى وفتحت أمام بصيرتى آفاقاً جديدة للفكر ، فأستأذنك وأستأذن إخواننا فى أن أقطع نغم قصة إيزيس لألقى بفكرة استشارها الآن عندى ما رواه مضيفنا الكريم عن ديودور الصقلي .
 وإنى بعد ذلك لآذانُ كلِّ تلتهم رواية إيزيس التهاماً .

« عبد قدماء المصريين آلهتهم لأنهم كانوا علم النصر وغلب الأعداء ، ولأنهم كانوا يقصدون فى آلهتهم ما تفيض على الحياة الإنسانية من خير .
 أليس هذا المعنى هو خلاصة الإيمان الإنسانى فى مختلف مظاهره ؟ ! أليس

هو إجلال القوى الظاهرة والخفية التى تمكن للإنسان فى الحياة ، تدر عليه خيرها وتكفيه شرها ؟ ! وهل هذا المعنى إلا السليقة الفطرية لكل حيوان ، سليقة الاحتفاظ بالحياة فى خير ظروفها . فهل لهذا نتيجة إلا أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان ، وإنما الفارق بينهما أن الإيمان يتطور لأن إدراك الإنسان مرن يتشكل بمختلف صور الحياة ، على حين قد تعجز السليقة عن هذا التشكل ، فيؤدى عجزها إلى فناء الحيوان الذى لم يؤت من فضل الطبيعة مرونة فى السليقة .

« هذه فكرة طرأت الآن على أرجو أن تعينونى على تمحيصها . ويخيل إلى أن جانب الحق فيها أرجح . فمن الحيوان ما مرنت سليقته فأمكن تألف الإنسان إياه . ولئن ظل قرار السليقة ثابتاً فى الحيوان الأليف وحيوان مثله لم يتألف ، فإن اختلاف سلوك كل منهما فى الحياة واختلاف معاملته لما حوله ومن حوله واختلاف يقظة المشاعر المختلفة عند كل منهما ، يدل على مبلغ مرونة سليقة نوع من الحيوان أو جمودها . فأنت قد تألف أسداً أو نمراً ، وقد ترى سلاتقه الوحشية تختفى . لكن هذه السلاتق أغلب عنده مما أدخلته عليها من تحوير . فما يكاد محرك يحرك السليقة حتى ينسى الأسد أو النمر ما طبعته أنت عليه ، ويعود الحيوان المفترس بكل شرسته ووحشيته . فأما إن تألفت كلباً أو جواداً كان لتألفك إياه أثر فى سليقته ، فلا تتحرك فيه الغرائز الأولى إلا أن يدفعه لذلك دافع شديد . ولا ينهض اعتراضنا على هذا أن الأجيال التى مرت على هذه الحيوانات الأليفة هى التى جعلتها كذلك . فلو أن الإنسان وجد فى الحيوانات الأخرى التى ما يزال يعتبرها عدواً مثل ما وجد فى الحيوانات الأليفة من مرونة فى السليقة ، لتألفها أيضاً ولجعل منها عوناً له فى الحياة . والإنسان أمرن الحيوان سليقة ، وقد تشكلت سليقته هذه على الأجيال ، وكانت القوالب الأولى التى

سبكت فيها لتهذب وتنقّي هي قوالب العقيدة . لذلك أرى جانب الحق أرجح في قولي : إن العقيدة تحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان .
بهتنا جميعاً لهذه الفكرة الجريئة المفاجئة ، واشتملنا الصمت زمناً .
ثم قال الذى دعانا إلى الشأى :

- لعلك يا صديقي بعد سماعك بقية حديث إيزيس أن تمحص فكرتك الطارئة . ولعلنا بعد سماعه نكون أقدر على معونتك فى هذا التمحيص .
وأوماً إلى نجى أبيس :

- عد إذن بنا يا صاح إلى حديث إلهة الجمال والوفاء . قال نجى أبيس :
- نعم هى إلهة الجمال والوفاء . ولن يضير وفاءها أن خدعها الظلام يوماً فحسبت تيفون زوجها وأسلمت إليه نفسها وأعقت منه . ولولا علم أوزوريس بأنها خدعت لما غفر لها خطأها .

كان الأشيب إلى هذا الموضع من الحديث شارد اللب يفكر فى جميلة سميراميس ويمد بصره إلى الذهبيات كلها يريد أن يعرف أيها قصدت ؟ فلما طرقت العبارة الأخيرة سمعه تبسم وقال :

- ولن يضير وفاء أية حسناء أن يخدعها ظلام معبد الحب فينسلها جميلة مثلها ترث عرش الزهرة من بعدها وتبعث فى الحياة من ضياء حسنهما ما ينير جوانبها المظلمة . وهل الوفاء إلا مظهر تجارى لعقد مالى أساسه الفائدة ؛ هو عقد الزواج ! وهل هو إلا جناية على الجمال وآلهة الجمال !
ابتهج نجى أبيس بهذا الدفاع الذى أوحته جميلة سميراميس إلى الأشيب فأضلته ، وعاد إلى حديث إيزيس فقال :

- استعادت إيزيس بمعونة ابنها هورس وصديقها الإلهين توت ونوبيس أشلاء زوجها أوزوريس ، وجعلت همها أن تعيد إليه الحياة . وكانت كلما عثرت بجزء من الجسم صنعت لأوزوريس تمثالاً من الشمع ووضعت

الجزء الذى عثرت به فى مكانه . فلما اجتمعت الأجزاء كلها أقامت إيزيس وأختها نفثيس حول الجثة وقد لبستا ثياب الحداد ، وحلتا شعورهما ، ودقتا صدورهما ورءوسهما بأيديهما ، كما لا تزال النائحات اليوم يفعلن ، وجعلتا تناديهما مستعيتين بزملائهما الآلهة لبعثه . فأما إيزيس فجعلت تقبل أقدام جثته نادبة : « عد إلى بيتك فأعداؤك ليسوا هنا . عد إلى بيتك وانظر إلى فأنا أختك التى تحب . لا تبتعد عني وعد إلى بيتك حالاً فإنك كلما غبت عن ناظرى اضطرب قلبي وحارت عيناي تبحثان عنك وجريت فى كل ناحية لكى أراك . عد إلى من تحب . عد إلى أختك . عد إلى زوجتك . أواه ! يا من وقف قلبه فلا ينبض ، عد إلى بيتك ولا تبتعد عني أنا أختك ابنة أمك . إن الآلهة والناس ييكونك جميعاً ، أما أنا فأدعوك معولة فى صراخ يشق عنان السماء . أفلا تسمع صوتى ؟ أنا أختك التى أحببت على الأرض بما لم تحب مثله » . وأما نفثيس وكانت عند رأسه فأعولت نادبة : « أيها الأمير الجميل عد إلى بيتك لتسرى عن نفسك فليس أحد من أعدائك ها هنا . إنهما أختاك إلى جانبك تحرسان سرير موتك وتدعوانك نادبتين . قم من سريرك لترى أختيك . لقد هزم أعداؤك وهأنذا حارسة أعضائك . قم انظر إلى ابنك هورس ملك الآلهة والناس . إنه يقيم الطقوس من أجلك ؛ فثوب ينشدك ويدعوك بترائيله ، وأبناء هورس يحرسون جثمانك ، وروحك تؤدي لها طقوسها كل يوم إذ يحيى الآلهة يحملون الأوعية المقدسة لتعميد صورتك . عد إلى أختك يا أميرنا يا مليكننا ولا تبتعد عنا » .

وأمسك نجى أبيس عن القصص برهة كأنما غلبه التأثير بحزن إيزيس ،

فقال الشاب :

— ما أشبه نواح إيزيس ونفثيس بنواح مصريات اليوم ! أو ليس حل

الشعور ودق الصدور والصراخ الذى يشق غنان السماء من طقوس حزن نسائنا على اختلاف طبقاتهن؟ أقرنا مع تناسخ العصور والأديان والحكام والأجناس التى قطنت الوادى خاضعين لحكم ما أنبت الوادى من عقائد وعادات وتقاليد؟

قال الذى دعانا إلى الشاى :

- وما طقوس الحزن إلى جانب ما نزال نؤمن به على أنه دين القبط أو المسلمين ، وهو ميراثنا عن أجدادنا من قدماء المصريين ! روى هيرودوتس أن الرجال فى غير مصر يقصون شعورهم آية الحزن على حين يرخيها المصريون من أقارب الميت علامة الأسى . وذلك ما نصنع اليوم . وأن المصريين وحدهم يحتملون أن تعيش الحيوانات على مقربة من الناس وفى دورهم ؛ وما يزال ذلك شأن مزارعينا ، وأنهم دون غير يختنون أبناءهم ، فعنهم ورث اليهود والمسلمون الختان . وذكر غير هيرودوتس طقوساً كان يقوم بها أجدادنا لبعض آلهتهم يقوم بمثلها اليوم عامتنا لبعض الأولياء . وفى ذلك مصداق ما ذكره كثيرون من أن العقائد لا ينسخ بعضها بعضاً ، بل يضاف بعضها إلى بعض . وأن كثيراً مما نسميه خرافات العامة وأوهامهم إنما هو بقايا متخلفة من أديان قديمة هى فى النفس الإنسانية أشبه بآثار الحيوانات البائدة المتحجرة فى الصخور ، والتى لا يسهل لذلك زوالها .

« وربما رأيت فيما سيجلوه صديقنا تنمة لحديث إيزيس وبعثاً لأوزوريس ما يعيد إلى ذهنك كثيراً غير ما ذكرت من عادات أهل هذا الجبل وعقائدهم » .

انجهمت الأنظار إلى نجى أبيس ، كأنما يريد كلُّ أن يعرف ما لا يزال فى نفسه من آثار الفراعنة العظام . واستطرد هو فى حديثه :

- ولما أدت إيزيس فرائض الحزن استعانت بهورس وبفتيس وبالألهة ، فتلوا من الأدعية والأوراد لروح أوزوريس ما كفى لعودها إلى جسمه تمهيداً لبعثه . وهنا تختلف رواية البعث : فمن قائل إنه كان بعثاً زراعياً ، ومن قائل إنه كان حيوانياً . والذين يذكرون البعث الزراعى يرون أن الجثة حملت بعد الأوراد والأدعية إلى شجرة جميز ووضعت خلال ورقها ، وهناك تم بعثها بعد سبعة أيام إلى حياة خالدة تحياها في السماء . والذين يذكرون البعث الحيوانى يرون أن الجثة وضعت بعد الأوراد والأدعية في صورة بقرة صنعت من الخشب ظلت فيها سبعة أيام كذلك ، ثم تم بعثها إلى الخلد .

« ثم عاد أوزوريس من العالم الآخر يوماً وسأل ابنه هورس عن أجمل الأعمال في نظره ، فكان جواب الإله الشاب : أن يثار لأبيه وأمه ممن أساء إليهما . وأعلن الحرب على إله الشر . وكانت بينهما موقعة دامت أياماً وانتهت بهزيمة الشر ووقوع تيفون أسيراً في يد إيزيس . لكنها بدلاً من أن تقضى عليه أو تسجنه أطلقت إيساره . وقد أحفظ ذلك هورس حتى انتزع عن رأسها تاج الملك » .

هنا تدخل الأشيب معترضاً :

- يا لهورس من ساذج ! أحسب أمه نسيت يوم خدعها الظلام وألقى بها في أحضان تيفون فأخصبها ! فهل تراها وهى إلهة الخصب تقسو بتيفون لأنه الشر ، منكرة ما للشر في أحيان كثيرة من فضائل وحسنات ؟ ! وعجبنا لضلال الأشيب بعد سحر الفاتنة إياه ، واتجهنا لسماع قصة إلهة الوفاء :

انتزع هورس تاج الملك من رأس أمه ، فغضب لذلك الإله هرفس وأبدل إيزيس من تاجها خوذة على صورة رأس بقرة تمثل الإلهة هاتور رمز إيزيس

نفسها . ويذهب القصاص إلى أن هورس ازداد لذلك غضباً فقطع رأس أمه . لكن هذه الرواية موضع شك عند المؤرخ اليوناني فلوطرخوس . وهو يذهب إلى أن الأم والابن تصالحا وعادا يحاربان الشر وانتصرا عليه في موقعتين نصرًا حاسماً ، وصارت إيزيس بعد ذلك إلهة الخصب وهورس إله الخير ، ولعلهما ارتقيا بعد ذلك إلى السماء راضيين .

« هذا حديث إيزيس في مصر ، أما حديثها في اليونان وروما . .

هنا أشار الأشيب من جديد معترضاً :

أمسك بربك وحق أبيس هنية . ألا ترون إلى ذلك الزورق المرخاة سدوله من حوله ؟ اقصد بنا إليه ياريس . إني لأتحسس فيه همساً من نجوى الهوى لا أشك معه في أنه معبد سيدتنا سميراميس . وهذا هو يتجه صوب ذهبية صديقنا الخليل . فإذا صدق ظني فما قولكم في أن نسبق السيدات والسادة إليها حتى لا يحسب أحد منهم أننا تأثرناهم لغاية ؟

وبدا على حديث الأشيب من الجلد الذى تلهب به الزهرة دماء عبادها ما ردنا عن مخالفته . وردنا كذلك أننا شعرنا بالغبطة لرؤية الفاتنة من جديد ، فأشرنا إلى الريس أن يقترب من الزورق المرخاة سدوله . فأخبرنا هو أنه حقاً الزورق الذى استقله السيدات والسادة ، واستحثه الأشيب كى يسبقهم إلى الذهبية . وألفينا الخليل واقفاً على ظهرها كأنما ينتظر أحداً . فلما رآنا سابحين نحوه أشار إلينا منادياً :

تقدموا فشاركوني في ليلة ساهرة هي جديرة بمثلكم ظرفاً وأدباً .

ولما رآنا السيدات والسادة حين ارتقوا الذهبية بدورهم دهشوا ، وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت إليه صوابه . وكانت ليلة ساهرة أرخى كثيرون فيها لأنفسهم العنان ، وإن أبى نجى أبيس إلا أن يتم حديث إيزيس في مصر وروما واليونان .